(**إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١)**) .

[آل عمران: ٤٦ – ٥١] .

(**إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ**) هذه بشارة من الملائكة لمريم، عليها السلام، بأن سيوجد منها ولد عظيم، له شأن كبير.

(**إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ**) أي: بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي: بقوله له (كن فيكون) وهذا تفسير قوله (مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ) كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه .

- **قال ابن عاشور** : ووصف عيسى بكلمة مراد به كلمة خاصة مخالفة للمعتاد في تكوين الجنين أي بدون الأسباب المعتادة .
- **قوله تعالى** (بِكَلِمَةٍ مِنْهُ) (من) ليست تبعيضية، بل ابتدائية، كقوله ﷺ (وروح منه) من : ابتدائية، وليست تبعيضية ، كقوله تعالى (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) أي : روح صادرة من الله ، وليست جزءاً من الله كما تزعم النصارى .

(**اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**) اسمه عيسى ، ولقبه المسيح ، وينسب لأمه . **سمي بالمسيح ؟**

قيل : لكثرة سياحته.

وقيل: لأنه كان مسيح القدمين ، أي : لا أخْمَص لهما.

وقيل: لأنه كان إذا مسح أحدًا من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى.

- **قال النووي** : حكي عن ابن عباس أنه قال : لم يمسح ذا عاهة إلا برئ .

وقيل : لأنه ممسوح أسفل القدمين لا أخمص له .

وقيل : لمسحه الأرض أي قطعها .

- وينسب لأمه ، حيث لا أب له .
- **قال ابن تيمية** : ولهذا لما ذكر الله المسيح في القرآن قال (ابن مريم) بخلاف سائر الأنبياء وفي ذلك فائدتان :

إحداهما : بيان أنه مولود ، والله لم يولد .

والثانية : نسبته إلى مريم ، بأنه ابنها ليس هو ابن الله .

(**وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**) أي: له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا، بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزل عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه به، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه، أسوة بإخوانه من أولي العزم، صلوات الله عليهم .

- **قال الشوكاني** : وجاهته في الدنيا النبوة ، وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة .

- **وقال أبو حيان : وقيل** : في الدنيا بالطاعة ، وفي الآخرة بالشفاعة.

وقيل : في الدنيا بإحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص ، وفي الآخرة بالشفاعة.

وقيل : في الدنيا كريماً لا يرد وجهه ، وفي الآخرة في علية المرسلين.

وقال الزمخشري : الوجاهة في الدنيا النبوة والتقدم على الناس ، وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة في الجنة.

وقال ابن عطية : وجاهة عيسى في الدنيا نبوته وذكره ورفعه ، وفي الآخرة مكانته ونعميه وشفاعته .

(**وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**) عند الله .

(**وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ**) أي : يكلمهم وهو في المهد ، آية من آيات الله تعالى . (**المهد فراش الرضيع**) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ **عِيسَى** ابْنُ مَرْيَمَ **وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ** وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلاً عَابِداً فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ . فَقَالَ يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي ... **وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ فَمَرَّ** رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ فَقَالَتْ أُمُّهُ اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا . فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ . قَالَ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فَمِهِ فَجَعَلَ يَمُصُّهَا . قَالَ وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ زَنَيْتِ سَرَقْتِ . وَهِيَ تَقُولُ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَقَالَتْ أُمُّهُ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا . فَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا . فَهُنَاكَ تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ فَقَالَتْ حَلْقَى مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ فَقُلْتُ اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ . فَقُلْتَ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ . وَمَرُّوا بِهَذِهِ الأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ زَنَيْتِ سَرَقْتِ . فَقُلْتُ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا . فَقُلْتَ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا قَالَ إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّاراً فَقُلْتُ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ . وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا زَنَيْتِ . وَلَمْ تَزْنِ وَسَرَقْتِ وَلَمْ تَسْرِقْ فَقُلْتُ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا) رواه مسلم .

(**وَكَهْلًا**) أي : يكلمهم في المهد كما يكلمهم في الكهولة .

- **قال الزمخشري** : معناه يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة .
- قال أبو مسلم : معناه أنه يكلم حال كونه في المهد ، وحال كونه كهلاً على حد واحد وصفة واحدة وذلك لا شك أنه غاية في المعجزة .
- وقال بعض العلماء : وفائدة الآية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلمهم في المهد ويعيش إلى أن يكلمهم كهلاً ، إذ كانت العادة أن من تكلم في المهد لم يعش.
- قال الأصم : المراد منه أنه يبلغ حال الكهولة.

(**وَمِنَ الصَّالِحِينَ**) الذين صلحت أعمالهم وعقائدهم وأقوالهم لله تعالى .

- **قال الطبري** (ومن الصالحين) فإنه يعني : من عِدَادهم وأوليائهم ، لأنّ أهل الصلاح بعضهم من بعض في الدين والفضل

(**قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ**) أي : قالت ذلك متعجبة .

(**وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**) أي : ولست بذات زوج ، ولا من عزمي أن أتزوج ، ولست بغياً ؟ حاشا لله .

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (قالت رب أنّى يكون لي ولد) في علة قولها هذا قولان :

أحدهما : أنها قالت هذا تعجباً واستفهاماً ، لا شكاً وإنكاراً ، على ما أشرنا إليه في قصة زكريا ، وعلى هذا الجمهور .

والثاني : أن الذي خاطبها كان جبريل ، وكانت تظنه آدمياً يريد بها سوءاً ، ولهذا قالت (أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً) .

- قال تعالى في سورة مريم (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ) أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع في خلقهم .

- **قال ابن القيم** : خلق هذا النوع الإنساني على أربعة أضرب :

لا من ذكر ولا من أنثى ، كآدم .

من ذكر بلا أنثى ، كحواء .

من أنثى بلا ذكر ، كالمسيح .

من ذكر وأنثى ، كسائر النوع .

- قال بعض العلماء : أن الملك وهو جبريل عليه السلام – لما استسلمت مريم لقضاء الله – نفخ في جيب درعها ، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى .

قال تعالى في سورة مريم (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا . فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا . فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا . يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) .

- قوله تعالى عنها (قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا) أي قبل هذا الحال .
- تمنت مريم الموت لسببين :

الأول : خوفاً من أن يقع أناس ويفتنوا بسببها .

الثاني : حتى لا تتهم بدينها .

- وقولها (وَكُنتُ نَسْياً مَنْسِيّاً) أي لم أخلق ولم أك شيئاً .

قال ابن كثير : فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة ، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ، ولا يصدقونها في خبرها ، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية .

وقوله تعالى (فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا) قولان للعلماء في المراد به :

فقيل : هو جبريل ، وهو قول ابن عباس .

وقيل : عيسى ، ورجحه ابن جرير والشنقيطي .

قال الشنقيطي مرجحاً هذا القول : فأشارت إليه ، وإشارتها إليه ليكلموه قرينة على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم على سبيل خرق العادة لندائه لها عندما وضعته .

(أَلاَّ تَحْزَنِي) أي ناداها قائلاً لها : لا تحزني (قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً) أي جعل جدولاً صغيراً يجري أمامك (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ) أي حركي جذع النخلة اليابسة (تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً) أي طرياً لذيذاً نافعاً (فكلي) من التمر (واشربي) من النهر (وقري عيناً) بهذا المولود عيسى ، ولا تحزني .

(فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَداً) أي مهما رأيت من أحد (فَقُولِي) المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك ، لا أن المراد به القول اللفظي لئلا ينافي [فلن أكلم اليوم إنسياً] (إِ نِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً) أي سكوتاً .

(فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً) أي فلن أكلم أحداً من الناس .

- **قال السعدي** : فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر أن تقول على وجه الإشارة إني نذرت للرحمن صوماً ، لتستريح من قولهم

وكلامهم ، وإنما لم تؤمر بمخاطبتهم في نفْي ذلك عن نفسها ، لأن الناس لا يصدقونها ، ولا فائدة فيه ، وليكون تبرئتها بكلام عيسى في المهد ، أعظم شاهداً على قراءتها .

قوله تعالى (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ) يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك وأن لا تكلم أحداً من البشر ، فإنها ستكفى أمرها ويقام بحجتها ، فسلمت الأمر لله واستسلمت لقضائه ، فأخذت ولدها فأتت به قومها تحمله ، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جداً وقالوا :

قوله تعالى (قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً) أي أمراً عظيماً .

(يَا أُخْتَ هَارُونَ) اختلف العلماء ما المراد بهارون هنا ؟

فقيل : نسبة إلى رجل صالح في قومها اسمه هارون ، أي يا شبيهة هارون بالعبادة .

وقيل : كانت من نسل هارون ، كما يقال للتميمي : يا أخا تميم .

- وليس المراد به هارون أخا موسى بالاتفاق ، لأن الله ذكر في كتابه أنه قفى بعيسى بعد الرسل ، فدل على أنه آخر الأنبياء بعثاً ، وليس بعده إلا محمد ﷺ ولهذا ثبت في الحديث الصحيح قال ﷺ (أنا أولى الناس بابن مريم ، لأنه ليس بيني وبينه نبي) .

(مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً) يا أخت الرجل الصالح هارون ما كان أبوك رجل سوء يأتي الفواحش، وما كانت أمك امرأة سوء تأتي البِغاء .

(فأشارت إليه) أي أنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية ، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة ، فأحالت الكلام عليه ، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه .

- ومعنى إشارتها إليه : أي أنهم يكلمونه فيخبرهم بحقيقة الأمر ، بدليل أنهم قالوا (كيف نكلم من كان في المهد صبياً) .

فقالوا متهكمين بها ظانين أنها تزدري بهم وتلعب بهم (قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً) أي من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره ، كيف يتكلم ؟ (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ) أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد ، وأثبت لنفسه العبودية لربه

كما قال تعالى (وقال عيسى يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم) .

وقال (إن الله ربي وربكم هذا صراط مستقيم) .

وقال تعالى عنه (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم) .

- قال العلماء : إنما قدم ذكر العبودية ليبطل قول من ادعى فيه الربوبية .

(قَالَ) لها الملك في جواب هذا السؤال :

(كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) أي: هكذا أمْرُ الله عظيم، لا يعجزه شيء. وصرح هاهنا بقوله (يَخْلُقُ) ولم يقل: (يفعل) كما في قصة زكريا، بل نص هاهنا على أنه يخلق؛ لئلا يبقى شبهة .

(إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) أي: فلا يتأخر شيئًا، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله تعالى (وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) أي: إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها، فيكون ذلك الشيء سريعًا كلمح بالبصر .

- **قال الطبري** : يقول تعالى : قالت مريم إذ قالت لها الملائكة أنّ الله يبشرك بكلمة منه : (ربِّ أنَّى يكون لي ولد) من أيِّ وجه يكون لي ولد ؟ أمِن قبل زوج أتزوجه وبعل أنكحه ، أمْ تبتدئ فيَّ خلقه من غير بعل ولا فحل ، ومن غير أن يمسَّني بشر ؟ فقال الله لها (كذلك الله يخلق ما يشاء) يعني : هكذا يخلق الله منك ولدًا لك من غير أن يمسَّك بشر ، فيجعله آيةً للناس

وعبرة ، فإنه يخلق ما يشاء ويصنعُ ما يريد ، فيعطي الولد من يشاء من غير فحل ومن فحلٍ ، ويحرِمُ ذلك من يشاءُ من النساء وإن كانت ذات بعلٍ ، لأنه لا يتعذر عليه خلق شيء أراد خلقه ، إنما هو أن يأمر إذا أراد شيئًا ما أراد خلقه فيقول له (كن فيكون) ما شاء ، مما يشاء ، وكيف شاء .

(**وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ**) الظاهر أن المراد بالكتاب هاهنا الكتابة ، قاله ابن كثير ، واختار هذا ابن جرير الطبري .

- **قال ابن عطية** : (ويعلمه الكتاب) هو الخط باليد فهو مصدر كتب يكتب . هذا قول ابن جريج وجماعة المفسرين ، وقال بعضهم : هي إشارة إلى كتاب منزل لم يعين وهذه دعوى لا حجة عليها.

(**وَالْحِكْمَةَ**) **قيل** : المراد بالحكمة هنا تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق .

وقيل : المراد بها هنا السنة ، واختاره ابن جرير .

وقيل : سنن الأنبياء عليهم السلام .

وقيل : الصواب في القول والعمل .

- من حكم عيسى عليه السلام :

كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك اتركوا لهم بالدنيا.

لا يصيب أحد حقيقة الإيمان حتى لا يبالي من أكل الدنيا.

يا معاشر الحواريين إن خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ، ويباعدان من زهرة الدنيا.

يا ابن آدم الضعيف اتّق الله حيثما كنت، وكل كسرتك من حلال ، واتخذ المسجد بيتاً ، وكن فيه الدنيا ضعيفاً ، وعوّد نفسك البكاء ، وقلبك التفكر ، وجسدك الصبر ، ولا تهتم برزقك غداً فإنها خطيئة تكتب عليك.

أصل كل خطيئة حب الدنيا. ورب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً.

اعبروا الدنيا ولا تعمروها ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، والنظر يزرع في القلب الشهوة.

حب الدنيا أصل كل خطيئة، والمال فيه داء كبير. قالوا: وما داؤه؟ قال: لا يسلم من الفخر والخيلاء. قالوا: فإن سلم؟ قال: يشغله اصلاحه عن ذكر الله.

وأخرج البيهقي عن مالك بن دينار قال : قالوا لعيسى عليه السلام يا روح الله ألا نبني لك بيتا ؟ قال : بلى. ابنوه على ساحل البحر قالوا : إذن يجيء الماء فيذهب به قال : أين تريدون ؟ تبنون لي على القنطرة ؟

مرت امرأة على عيسى عليه السلام فقالت : طوبى لثدي أرضعك ، وحجر حملك ، فقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن قرأ كتاب الله ثم عمل بما فيه.

الخمر مفتاح كل شر ، والنساء حبالة الشيطان.

وقال لأحبار بني إسرائيل : لا تكونوا للناس كالذئب السارق ، وكالثعلب الخدوع ، وكالحدأ الخاطف.

يا معشر الحواريين أيكم يستطيع أن يبني على موج البحر داراً ؟ قالوا : يا روح الله ومن يقدر على ذلك! قال : إياكم والدنيا فلا تتخذوها قراراً.

طوبى لمن خزن لسانه، ووسعه بيته، وبكى من ذكر خطيئته. استحي مني .

(**وَالتَّوْرَاةَ**) وهو الكتاب الذي أنزله الله على موسى بن عمران .

(**وَالْإِنْجِيلَ**) وهو الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، وقد كان عيسى عليه السلام، يحفظ هذا وهذا.

(**وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ**) أي : و يجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلا لهم :

(**أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ**) أي : جئتكم بعلامة تدل على صدقي ، وهي ما أيدني الله من المعجزات .

- المراد بالآية الجنس لا الفرد لأنه تعالى عدد ههنا أنواعاً من الآيات ، وهي إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، والإخبار عن المغيبات فكان المراد من قوله (قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مّن رَّبّكُمْ) الجنس لا الفرد.

وفي هذا أن عيسى بعث إلى قومه خاصة لقوله (وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ) ولقوله ﷺ (وكان النبي ﷺ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) متفق عليه .

(**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ**) وكذلك كان يفعل: يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخُ فيه، فيطير عيانًا بإذن الله، عز وجل، الذي جعل هذا معجزة يَدُلّ على أن الله أرسله.

- **قال في التسهيل** :ذكر (بِإِذْنِ الله) رفعاً لوهم من توهم في عيسى الربوبية .
- **وقال الشوكاني** : وقوله (بِإِذْنِ الله) فيه دليل على أنه لولا الإذن من الله عزّ وجلّ لم يقدر على ذلك ، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه أجراه على يد عيسى عليه السلام .
- **قال الشيخ الشنقيطي** : قوله تعالى : (أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ) الآية، هذه الآية يوهم ظاهرها أن بعض المخلوقين ربما خلق بعضهم، ونظيرها قوله تعالى (وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً) الآية، وقد جاءت آيات أخر تدل على أن الله خالق كل شيء كقوله تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)، وقوله (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) إلى غير ذلك من الآيات.

والجواب ظاهر وهو معنى خلق عيسى كهيئة الطير من الطين : هو أخذه شيئاً من الطين وجعله على هيئة أي صورة الطير، وليس المراد الخلق الحقيقي ؛ لأن الله متفرد به – جل وعلا –وقوله (وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً) معناه : تكذبون، فلا منافاة بين الآيات كما هو ظاهر.

(**وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ**) قيل: هو الذي يبصر نهارًا ولا يبصر ليلاً ، وقيل بالعكس. وقيل: هو الأعشى. وقيل: الأعمش. وقيل: هو الذي يولد أعمى. وهو أشبه؛ لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي .

(**وَالْأَبْرَصَ**) معروف .

- **قال ابن عادل**: إنما خَصَّ هذين المرضَيْن لأنهما أعْيا الأطباء، وكان الغالب في زمن عيسى عليه السلام الطبَّ، فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك .
- **وقال الشوكاني** : وإنما خص الله سبحانه هذين المرضين بالذكر؛ لأنهما لا يبرآن في الغالب بالمداواة .

(**وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ**) الآية العظمى ، وهذا من آيات الله ، وفي الأخرى (وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى) ، في الآيتين إحياء الموتى وإن كانوا على ظهر الأرض، وإحياء الموتى وإن كانوا في القبور وإخراجهم منها أحياء، يعني إذا ضممت هذه إلى هذه استفدت فائدتين : أنه يحيي الموتى وهم على ظهر الأرض ، ويحييهم وهم في بطن الأرض فيخرجون . (الشيخ ابن عثيمين) .

- **قال ابن كثير** : قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة. فبعثه الله بمعجزة بَهَرَت الأبصار وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، وصاروا من الأبرار. وأما عيسى عليه السلام فبُعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيدًا من الذي شرع الشريعة. فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه، والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟ وكذلك محمد ﷺ بعثه الله في زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير

الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله، عز وجل، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدًا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبدًا.

(**وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ**) أي: أخبركم بما أكل أحدكم الآن، وما هو مدخر له في بيته لغده .

- **قال الرازي** : الإخبار عن الغيوب على هذا الوجه معجزة ، وذلك لأن المنجمين الذين يدعون استخراج الخير لا يمكنهم ذلك إلا عن سؤال يتقدم ثم يستعينون عند ذلك بآلة ويتوصلون بها إلى معرفة أحوال الكواكب ، ثم يعترفون بأنهم يغلطون كثيراً ، فأما الإخبار عن الغيب من غير استعانة بآلة ، ولا تقدم مسألة لا يكون إلا بالوحي من الله تعالى.

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) أي : في ذلك كله .

- **قال الطبري** : يعني بذلك جل ثناؤه: إنّ في خلقي من الطين الطيرَ بإذن الله، وفي إبرائي الأكمهَ والأبرصَ، وإحيائي الموتى، وإنبائيَ إياكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، ابتداءً من غير حساب وتنجيم، ولا كهانة وعرافة .

(**لَآيَةً لَكُمْ**) على صدقي فيما جئتكم به .

- **قال الطبري** : أي : لعبرةً لكم ومتفكَّرًا ، تتفكرون في ذلك فتعتبرون به أنيّ محق في قولي لكم (إني رسولٌ من ربكم إليكم) وتعلمون به أني فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق .

(**إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**) يعني : إن كنتم مصدّقين حجج الله وآياته ، مقرّين بتوحيده ، وبنبيه موسى والتوراة التي جاءكم بها.

- فغير المؤمن لا ينتفع بالآيات قال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ).

وقال تعالى (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) .

(**وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ**) أي: مقرر لهم ومُثَبّت .

(**وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**) أي : ولأحلَّ لكم بوحي من الله بعض ما حرَّمه الله عليكم تخفيفًا من الله ورحمة.

والمحرم عليهم ذكر الله تعالى في قوله (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ) .

وقال تعالى (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ) .

- **قال ابن كثير** : فيه دلالة على أن عيسى، عليه السلام، نسَخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئًا، وإنما أحَلّ لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطؤوا، فكشف لهم عن المغطى في ذلك، كما قال في الآية الأخرى (وَلأبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ) والله أعلم .

(**وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ**) أي : وجئتكم بحجة من ربكم على صدق ما أقول لكم .

(**فَاتَّقُوا اللَّهَ**) أي : فاتقوا الله يا معشرَ بني إسرائيل ، فيما أمركم به ونهاكم عنه في كتابه الذي أنزله على موسى ، فأوفوا بعهده الذي عاهدتموه فيه .

(**وَأَطِيعُونِ**) فيما دعوتكم إليه من تصديقي فيما أرسلني به .

(**إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ**) أي: أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه .

- معاني الرب في لسان العرب ترجع إلى ٣ أصول : الأول : السيد ، والثاني : المالك ، والثالث : المصلح للشيء للقائم عليه .
- **قال الرازي** : ختم كلامه بقوله (إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ) ومقصوده إظهار الخضوع والاعتراف بالعبودية لكيلا يتقولوا عليه الباطل فيقولون : إنه إله وابن إله لأن إقراره لله بالعبودية يمنع ما تدعيه جهال النصارى عليه ، ثم قال (فاعبدوه) والمعنى : أنه

تعالى لما كان رب الخلائق بأسرهم وجب على الكل أن يعبدوه ، ثم أكد ذلك بقوله (هذا صراط مُّسْتَقِيم) .

- **وقال في التسهيل** : قوله تعالى (إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ) ردّ على من نسب الربوبية لعيسى .
- عبادة الله : هذه دعوة جميع الرسل ، الدعوة إلى عبادة الله وحده ، وترك الشرك ، وهذا معنى : لا إله إلا الله : أي : لا معبود حق إلا الله .
- وأصل العبادة في لغة العرب: الذل والخضوع، وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده، فالعبادة: الذل والخضوع على وجه المحبة خاصة، فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع ، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة، لأن الإنسان إذا كان ذله متجرداً عن محبة الله يُبغض الذي هو يذل له، ومن أبغض ربه هلك، وإذا كانت محبةً خالصة لا خوف معها، فإن المحب الذي لا يُداخله خوف يحمله الدلال على أن يسيء الأدب، ويرتكب أموراً لا تنبغي، والله عز وجل لا يليق به شيء من ذلك. (قاله الشنقيطي)
- فالعبادة تطلق على معنيين : احدهما: التعبد: يعني التذلل لله، كما سبق، وتطلق على المتعبد به (بالنسبة لأفعال العباد) **وهي**: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة القلبية والجوارحية .
- دعوة جميع الرسل الدعوة إلى عبادة الله وحده .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .

وكان كل نبي يقول لقومه : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره كما قال تعالى (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) .

وقال تعالى (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ)

وقال تعالى (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

وقال تعالى (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(**هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**) يعني هذا التوحيد الذي أدعوكم إليه طريق مستقيم ، لا عوج فيه ، وهو طريق الجنة .

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (هذا صراط مستقيم) الإشارة إلى ما قاله كلِّه أي أنّه الحق الواضح فشبهه بصراط مستقيم لا يضلّ سالكه ولا يتحير.

الفوائد :

١- فضل مريم وابنها .

٢-مشروعية تبشير المسلم .

٣- الثناء على عيسى بهذه الصفات العظيمة .

٤- أن عيسى وجد من أم بلا أب .

٥-أن عيسى مخلوق كغيره من البشر .

٦- الرد على اليهود في اتهامهم لعيسى وأمه .

٧- عظمة قدر الله تعالى .

٨- أن الله لا يعجزه شيء .

٩- أن كل أحد بحاجة إلى تعليم الله حتى الأنبياء .

١٠- فضل العلم .

١١- إثبات رسالة عيسى .

١٢- أن عيسى مرسل إلى قومه خاصة .

١٣- الإشارة إلى وجوب قبول رسالته لقوله (من ربكم) .

١٤- قدرة الله حيث جعل عيسى ابن مريم يخلق من الطين كهيئة الطير .

١٥- أن من آيات عيسى أنه يبرئ الأكمه والأبرص ، لكن بإذن الله .

١٦- الآية العظيمة وهي إحياء الموتى .

١٧- أن الرسل لا يملكون شيئاً من الربوبية .

١٨- أن الله أطلع نبيه عيسى على ما يأكل قومه وما يدخرون .

١٩- إثبات الحكمة لله تعالى .

٢٠- أن الإيمان يحمل صاحبه على قبول الآيات .

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)
[آل عمران : ٥٢ – ٥٤] .

(**فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ**) أي: استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال .

(**قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ**) قال مجاهد : أي من يَتبعني إلى الله ؟ وقال سفيان الثوري وغيره : من أنصاري مع الله ؟ وقول مجاهد أقربُ.

والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج، قبل أن يهاجر: (مَنْ رَجُل يُؤْوِينِي عَلى أن أبلغ كلامَ رَبِّي، فإنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي) حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فآسوه ومنعوه من الأسود والأحمر. وهكذا عيسى ابن مريم، انْتَدَبَ له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه.

- **قال الرازي** : قال الأكثرون من أهل اللغة إلى ههنا بمعنى مع قال تعالى (وَلاَ تَأْكُلُواْ أموالهم إلى أموالكم) أي معها ، وقال ﷺ (الذود إلى الذود إبل) أي مع الذود.
- **قال الماوردي** : واختلفوا في سبب استنصار المسيح بالحواريين على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه استنصر بهم طلباً للحماية من الكفار الذين أرادوا قتله حين أظهر دعوته ، وهذا قول الحسن ، ومجاهد.

والثاني : أنه استنصر بهم ليتمكن من إقامة الحجة وإظهار الحق .

والثالث : لتمييز المؤمن الموافق من الكافر المخالف .

(**قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ**) أي : قال أصفياء عيسى: نحن أنصار دين الله والداعون إليه .

- **قال الرازي** : ذكروا في لفظ (الحواري) وجوهاً :

الأول : أن الحواري اسم موضوع لخاصة الرجل ، وخالصته ، ومنه يقال للدقيق حواري ، لأنه هو الخالص منه ، وقال ﷺ للزبير (إنه ابن عمتي، وحواري من أمتي) والحواريات من النساء النقيات الألوان والجلود، فعلى هذا الحواريون هم صفوة الأنبياء الذي

خلصوا وأخلصوا في التصديق بهم وفي نصرتهم.

القول الثاني : الحواري أصله من الحور ، وهو شدة البياض ، ومنه قيل للدقيق حواري ، ومنه الأحور ، والحور نقاء بياض العين ، وحورت الثياب : بيضتها ، وعلى هذا القول اختلفوا في أن أولئك لم سموا بهذا الاسم ؟ فقال سعيد بن جبير : لبياض ثيابهم ، وقيل كانوا قصارين ، يبيضون الثياب ، وقيل لأن قلوبهم كانت نقية طاهرة من كل نفاق وريبة فسموا بذلك مدحاً لهم، وإشارة إلى نقاء قلوبهم، كالثوب الأبيض، وهذا كما يقال فلان نقي الجيب ، طاهر الذيل ، إذا كان بعيداً عن الأفعال الذميمة ، وفلان دنس الثياب : إذا كان مقدماً على ما لا ينبغي.

- **قال الطبري** : وأشبه الأقوال التي ذكرنا في معنى "الحواريين"، قولُ من قال: سموا بذلك لبياض ثيابهم، ولأنهم كانوا غسّالين.
- **قال الشنقيطي** : لم يبين هنا الحكمة في ذكر قصة الحواريين مع عيسى ولكنه بين في سورة الصف ، أن حكمة ذكر قصتهم هي أن تتأسى بهم أمة محمد صلىﷺ في نصرة الله ودينه ، وذلك في قوله تعالى (يا أيها الذين آمَنُواْ كونوا أَنصَارَ الله كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصاري إِلَى الله) .

(**آمَنَّا بِاللَّهِ**) أي : آمنا بما يجب الإيمان بالله .

(**وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**) فالإسلام دين جميع الرسل :

فنوح يقول لقومه (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) .

والإسلام هو الدين الذي أمر الله به أبا الأنبياء إبراهيم (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ويوصي كل من إبراهيم ويعقوب أبناءه قائلاً (فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) .

وأبناء يعقوب يجيبون أباهم (نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) .

وموسى يقول لقومه (يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ) .

والحواريون يقولون لعيسى (آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) .

ويوسف قال (توفني مسلماً ...) .

وسليمان عليه السلام قال (وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِين) .

وملكة سبأ (قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

(**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ**) أي : صدّقنا (بما أنزلت) يعني : بما أنزلتَ على نبيك عيسى من كتابك .

(**وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ**) أي : امتثلنا ما أتى به منك إلينا .

(**فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**) أي : اكتبنا في جملة من شهد لك بالتوحيد ولأنبيائك بالتصديق ، والمقصود من هذا أنهم لما أشهدوا عيسى عليه السلام على إسلام أنفسهم ، حيث قالوا (واشهد بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) فقد أشهدوا الله تعالى على ذلك تأكيداً للأمر ، وتقوية له ، وأيضاً طلبوا من الله مثل ثواب كل مؤمن شهد لله بالتوحيد ولأنبيائه بالنبوّة.

- **قال الطبري** : يقول : فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق ، وأقرُّوا لك بالتوحيد ، وصدّقوا رسلك، واتبعوا أمرك ونهيك، فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك، وأحِلَّنا محلهم، ولا تجعلنا ممن كفر بك ، وصدَّ عن سبيلك ، وخالف أمرك ونهيك.

وقيل : (فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) أي : محمد ﷺ وأمته لأنهم يشهدون للرسل بالتبليغ ومحمد ﷺ يشهد لهم بالصدق .

(**وَمَكَرُوا**) أي : مكروا بعيسى حيث هموا بقتله .

(**وَمَكَرَ اللَّهُ**) حيث أنقذه منهم ، ورفعه إلى السماء .

قيل : إن الحواريين كانوا اثني عشر ، وكانوا مجتمعين في بيت فنافق رجل منهم ، ودل اليهود عليه ، فألقى الله شبهه عليه ورفع عيسى ، فأخذوا ذلك المنافق الذي كان فيهم ، وقتلوه وصلبوه على ظن أنه عيسى عليه السلام ، فكان ذلك هو مكر الله بهم.

- **قال الشيخ الشنقيطي** : لم يبين هنا مكر اليهود بعيسى ولا مكر الله باليهود ، ولكنه بين في موضع آخر أن مكرهم به محاولتهم قتله ، وذلك في قوله (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولَ الله) وبين أن مكره بهم إلقاؤه الشبه على غير عيسى وإنجاؤه عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وذلك في قوله (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ولكن شُبِّهَ لَهُمْ) ، وقوله (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَل رَّفَعَهُ الله إِلَيْهِ) .

(**وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**) سبحانه وتعالى .

الفوائد :

١- عتو بني إسرائيل .

٢- أن الرسل دعوتهم إلى الله لا إلى أنفسهم .

٣- فضيلة الحواريين .

٤- أن الرسل لا يعلمون الغيب .

٥- فضيلة الحواريين في لجوئهم إلى الله .

٦- إثبات علو الله .

٧- أن أعداء الرسل يمكرون لهم .

٨- أن الله لا يوصف بالمكر على سبيل الإطلاق ، بل يقال : إن الله ماكر بمن يمكر به .

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥)) .

[آل عمران : ٥٥] .

(**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**) اختلف المفسرون في قوله (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) .

لأن عيسى لم يمت بل رفع كما قال تعالى (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً) .

وقوله تعالى (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ) .

فقيل : المراد بالوفاة هنا النوم .

وهذا قول الربيع بن أنس ، والحسن وغيرهم ، وعزاه ابن كثير والشوكاني للأكثرين .

- **قال ابن كثير** : وقال الأكثرون : المراد بالوفاة هاهنا : النوم . واستدلوا :

بقوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) .

وقوله تعالى (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

وكان ﷺ إذا قام من النوم يقول (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور) رواه البخاري .

وقوله تعالى (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً . وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً) .

قال ابن كثير : والضمير في قوله (قبل موته) عائد على عيسى ، أي : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى ، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة .

وقيل : إن الوفاة هنا بمعنى : القبض ، أي : قابضك من الأرض ، فرافعك إليّ .

وهذا قول جمهور المفسرين . واستدلوا :

بقوله تعالى (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) .

قال البغوي : أي قبضتني إلى السماء وأنا حي ، لأن قومه إنما تنصروا بعد رفعه إلى السماء لا بعد موته .

قال الشنقيطي : ...الوجه الثالث : أنّ (مُتَوَفِّيكَ) اسم فاعل توفاه إذا قبضه وحازه إليه ومنه قولهم : (توفّى فلان دينه) إذا قبضه إليه .. فيكون معنى (مُتَوَفِّيكَ) على هذا قابضك منهم إلي حيا، وهذا القول هو اختيار بن جرير، ... ثم قال رحمه الله: وأما الجمع بأنه توفّاه ساعات أو أياما ثم أحياه فالظاهر أنه من الإسرائيليات، وقد نهى ﷺ عن تصديقها وتكذيبها .

وقيل : إن الوفاة في الآية بمعنى الموت ، وهذا مروي عن ابن عباس . **وهذا القول يحتمل وجهين** :

الوجه الأول : أن الله توفاه ثم رفعه بعد ذلك إلى السماء .

الوجه الثاني : أن في الآية تقديماً وتأخيراً فيكون المعنى : إني رافعك إلي ، ومطهرك من الذين كفروا ، ومتوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا ، وهذا من المقدم الذي معناه التأخير .

- **قال السمرقندي** : قوله تعالى (إِذْ قَالَ الله يا عيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) ففي الآية تقديم وتأخير، ومعناه إني رافعك من الدنيا إلى السماء ، ومتوفّيك بعد أن تنزل من السماء على عهد الدجال .

وقد ضعف ابن جرير الوجه الأول فقال : ومعلوم أنه لو كان قد أماته الله، لم يكن بالذي يميته ميتة أخرى، فيجمع عليه ميتتين ، لأن الله إنما أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يميتهم ثم يحييهم .

وقال القرطبي – بعد أن أورد الوجه الأول – : وهذا فيه بعد ، فإنه صح في الأخبار عن النبي ﷺ نزوله وقتله الدجال .

وقيل : أن الوفاة هنا بمعنى : مستوفي أجلك ، ومتم عمرك ، وذلك بعصمتك من قتل أعدائك ، ومؤخرك إلى أجلك المقدر ، ومميتك بعد ذلك لا قتلاً بأيديهم .

وهذا اختيار الزمخشري ، وأبي السعود ، والقاسمي .

وقيل : أن الوفاة هنا بمعنى : متقبل عملك ، وقد أورد هذا المعنى ابن عطية وضعفه فقال : وهذا ضعيف من جهة اللفظ .

(**وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**) أي : برفعي إياك إلى السماء .

- **قال الراز** : المعنى مخرجك من بينهم ومفرق بينك وبينهم، وكما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه أخبر عن معنى التخليص بلفظ التطهير وكل ذلك يدل على المبالغة في إعلاء شأنه وتعظيم منصبه عند الله تعالى.

(**وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**) وهكذا وقع؛ فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء تَفَرَّقت أصحابه شيَعًا بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله،

وآخرون قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن، ورَد على كل فريق، فاستمروا كذلك قريباً من ثلاثمائة سنة، ثم نَبَع لهم ملك من ملوك اليونان، يقال له: قسطنطين، فدخل في دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفاً، وقيل: جهلاً منه، إلا أنه بَدل لهم دين المسيح وحرفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبيرة – التي هي الخيانة الحقيرة–وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصَلّوا له إلى المشرق وصوروا له الكنائس، وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه، فيما يزعمون. وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه الطائفة المَلْكِيَّة منهم. وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيَّدهم الله عليهم لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفار، عليهم لعائن الله.

قال الرازي : قوله تعالى (وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) فيه وجهان :

الأول : أن المعنى : الذين اتبعوا دين عيسى يكونون فوق الذين كفروا به ، وهم اليهود بالقهر والسلطان والاستعلاء إلى يوم القيامة ، فيكون ذلك إخباراً عن ذل اليهود وإنهم يكونون مقهورين إلى يوم القيامة ، فأما الذين اتبعوا المسيح عليه السلام فهم الذين كانوا يؤمنون بأنه عبد الله ورسوله وأما بعد الإسلام فهم المسلمون ، وأما النصارى فهم وإن أظهروا من أنفسهم موافقته فهم يخالفونه أشد المخالفة من حيث أن صريح العقل يشهد أنه عليه السلام ما كان يرضى بشيء مما يقوله هؤلاء الجهال ، ومع ذلك فإنا نرى أن دولة النصارى في الدنيا أعظم وأقوى من أمر اليهود فلا نرى في طرف من أطراف الدنيا ملكاً يهودياً ولا بلدة مملوءة من اليهود بل يكونون أين كانوا بالذلة والمسكنة وأما النصارى فأمرهم بخلاف ذلك.

الثاني : المراد بالفوقية بالحجة والدليل .

(**ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ**) أي : يوم القيامة .

- ويوم القيامة ، سمي بذلك :

أولاً : لأن الناس يقومون من قبورهم : قال تعالى (يوم يقوم الناس لرب العالمين) .

ثانياً : ولقيام الأشهاد .لقوله تعالى (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

ثالثاً : ولقيام الملائكة لقوله تعالى (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً ...) .

(**فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**) أي : فأفصِل بينكم فيما كنتم فيه تختلفون من أمر عيسى عليه السلام.

الفوائد :

١–إثبات القول لله تعالى .

٢– أن الله رفع عيسى بجسمه .

٣– أن الله منع الأذى عن عيسى .

٤–طهارة عيسى من كل سوء .

٥– أن كل من اتهم عيسى بالسوء فهو كافر .

٦– أن أتباع عيسى منصورون إلى يوم القيامة .

٧–إثبات يوم القيامة .

٨– أن مرجع الخلائق إلى الله .